نحو تصوف معاصرٍ مُستوعِب

د. محمود أبو الهدى الحسيني

(9-10-11)/11/2008

تمهيد:

التصوف أو ركن الإحسان من الدين، هو روح هذا الدين، وشعلةُ الوقود في مركبته، والجمع بين تحصيله الروحي ووجوده في الصورة الشرعية النقية هو عين التمسك بالعروة الوثقى، فقد قال تعالى: (وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى)(22)لقمان

لكنَّ ضعف الشعلة الروحية، وتشوه الصورة العملية أفقدا حركاتِ التصوف دورها الفاعل، فكان لا بد من المراجعة، أملا في عودة الحق، وتجديدِ النقاء.

وقد جعلتُ بحثي هذا منقسما إلى أربعة محاور

1. الأزمات المعرفية والحضارية المعاصرة في أمتنا.
2. السلوكيات المعاصرة المنتسبة إلى التصوف بين الغث منها والسمين.
3. مقاصد التصوف الكبرى في تربيته ومعارفه.
4. التطوير المنشود في أسلوب العمل الصوفي.

واللهَ أرجو لتحقيقِ القصد، وتيسيرِ المنشود، وهو المولى والنصير.

أولا - الأزمات المعرفية والحضارية المعاصرة في أمتنا:

تعيش أمتنا الإسلامية اليوم أزماتٍ معرفيةً وثقافية وسلوكية وحضارية، فقد صَعِد الخطُّ البياني إلى القرن الرابعِ الهجري، ثمpالمزدهرُ بالعلومِ في الأمة الإسلامية من عهد النبي تحرّك مستقيمًا حتى القرن السابع، وبدأ ينحدر انحدارا يسيرا حتى القرن التاسع، وبعدها أسرع بالنـــزول والانحطاط حتى وصل في القرن الثالثَ عشر وأوائلِ الرابعَ عشر إلى الحضيض، فعانى عالمنا الإسلامي من أزماتٍ عدة من أهمها:

1. الهيمنة الاستعمارية العسكرية وما تلاها من الأسرِ الثقافي والسياسي والاقتصادي وقد طالت أكثر البلاد الإسلامية، وكانت ابتداء على شكل احتلال وقحٍ يسرقُ الثروة، ويستعبدُ الناس، ويضمُّ البلادَ إلى

الدول المعتدية المستكبرة، لكنَّ تلك الدول المعتدية حين أيقنت أنها خارجةٌ ومطرودة، وأن تحريرَ الشعوب لبلدانها قضية وقت، وضعت مخططاتٍ بعيدةً تضمن بعد خروجها وجود وَلاءٍ وتبعيةٍ لها يشقُّ وحدة الصفوف في الشعوب المسلمة، ويوفِّرُ لها دوام المنافع، واستمرار توارد المصالح، ومن أجل ذلك اجتهدت لتبديل الهوية الثقافية في الأمة الإسلامية، وبذلت من أجل هذا الكثير لاستصناع أدواتٍ بشريةٍ موالية للمخططات المنافية والمباينة لنسيج أمتنا، وبعد خروجها راغمة من البلاد الإسلامية، دعمت تلك الأدوات دعمًا كبيرا حتى أوصلتها إلى مراكز تكوين القرارات وصناعتها، فدامت التبعية في أغلب البلاد الإسلامية لثقافة مستعمريها القُدامى، وبدلا من النهضة التي ينبغي أن تكون بعد خروج المستعمر حصل في الشعوب المسلمة الاسترخاءُ والكسلُ، و لم تتحقق انطلاقة حضارية عاجلة، كتلك التي سعت إليها بعضُ الشعوب المنكسرة في بلادٍ أخرى كاليابان، وألمانيا، بل غلبت الصراعاتُ الفكرية المصطنعة، وانتشرت عدوى النـــزاعات الحزبية، والصداماتِ الفئوية، وشهوةُ الوصول إلى الحكم، على حسابِ البحث العلمي، والتطويرِ الصناعي والتقني، ووقعت الشعوب المسلمة نتيجةَ ما تقدم في أسرِ الاقتصاد، والحاجة التجارية لاستيراد المصنوعات الحديثة التي تصنعُ في دول المستعمر القديم، ومع ضعف الهمة الإيمانية، وخمود الشعلة الروحية أنتج هذا أسرا ثقافيا وسياسيًا.

2.الجهلُ بالأصولِ الإسلاميةِ التي جاء بها ، فغلبَ على الأمة التقليدُ المستنسَخُ، والتكريرُ للمحفوظ الكريم الذيρالمصطفى أنتجه أفذاذُ الاستنباط في القرون السابقةِ، وانعدمت الملاحظةُ لتباينِ الظروفِ التي أُسس فيها ذلك النتاجُ، والظروفِ المعاصرة المعقّدة، بعدما أضيفت قضايا جديدة، تحتاجُ إلى دراسة فاهمةٍ للمتغيرات، كالأحكامِ السلطانيةِ التي أسست عليها السياسة الشرعية، وبعضِ المعاملات الاقتصادية المستجدة، ومفهوماتِ دار الإسلام ودار الحرب، إلى غير ذلك من القضايا الدقيقة، التي صار من المناسب أن تقرأها النخبُ العلمية من جديد، هذا على مستوى من دَرَس العلم وردَّده، أما ما يحصلُ على المستويات العامة فرهيب، إذ فقدت المعرفة بسبب إهمال الأفراد للتعلم إما تكاسلاً أو زهداً فيه، وقصّر كثيرٌ من الدعاةِ والعلماء وأصحابِ التصوف في نشر المعرفة بجميع وسائل نشرها، واقتصرَ الأمر في كثير من الأمكنة على إثارة العاطفة الدينية، وتشويق السامعين بالحكايات المثيرة البعيدة عن قواعد العلم

وأصوله.

3.الاختلاف والعداوة في البيئة الإسلامية أو البيئة المنتسبة إلى التصوف التي كان من المتوقع أن تكون الأبعد عن رعونات النفوس، فغلب حُبُّ الصدارة على بعضهم، وتحزَّبَ بعضهم ونأوا بأنفسهم عن الشورى وتنسيق العملِ بين دوائرهم الصوفية، أو الدعْوية، وغفلوا عن روابط الأمة الإسلامية وواجب أخوَّتها الإيمانية النورانية، وخبا نور الصدقِ والإخلاص في القلوب .

4.الفوضى الإعلامية، والانفتاح المعلوماتي الأرعن، الذي أفقد الفردَ في أمتنا خصوصيةَ تلقّي المعلومة عن أصحابِ التخصص المؤتمن في دين الله، وقد كان محمد بن سيرين ومالك بن أنس وغيرهما من السلف يقولون: "هذا العلم دين من قولهρفانظروا عمن تأخذون دينكم" ويُستأنس في هذا الباب بما يُروى عن المصطفى لابن عمر رضي الله عنهما: "ابن عمر دينك دينك إنما هو لحمك ودمك، فانظر عمن تأخذ، خذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا" فالانفتاحُ المعلوماتي إيجابي لمن تلقّى العلمَ عن أهله حتى تمكّن من التمييز بين الغثّ والسمين، والنافع والضارّ، والأصيل والدخيل، أما الواقعُ المُعاشُ فهو تلقّي كثيرٍ ممن لم يدرسوا العلم خليطًا فوضويَّ المعلومة، لا تبقى معه ثقافة أصيلة، ولا علمٌ معتَبر.

5.العولمةُ الجديدة التي أرادت ركوعَ الجميع تعظيما لصنمها المصنوع الجديد، ومن أجل هذا سعت إلى الهيمنةِ على مراكزِ العالم، والاستيلاء على مصادر الطاقة، وإيجادِ قطبٍ واحدٍ يسخِّرُ العالَمَ لمصالحه، وكانَ من ورائها الحُلُمُ الصهيوني الذي يدفعُ اليمينَ المتطرفَ في أكبر دول العالم إلى مصائبِ العالمِ وكوارثه، وما تزال مع أزماتها المالية الجديدة تستمرُّ في استنـــزافِ الثروة العالمية وإرغام العالم على تحمُّلِ أخطائها الشنيعة، لكنَّ الأخطر في تلك الظاهرة الجديدة هو الإرغامُ على التبعية الثقافية، وإلغاء الهوية الثقافية للآخرين، وفرضُ الصورة المتحللة الفاسدة على شعوب العالم، والتركيز على كل ذلك في العالم العربي والإسلامي.

6.استفزازُ التطرف الغربي المتزايد للمسلمين، بتكرار عُدوانهم على المقَدّسِ الإسلامي، ورسولهِ الأكرم، وافتعالِ أزماتٍ يترفَّعُ عن مثلها العقلاء، ومما يثير الأسفَ أنَّ الاستفزاز لم ينحصر في رَعاعِ الغربِ وسفهائه لكنه صدر عن مستوياتٍ متفاوتة، كانت منها مستوياتٌ كبيرة على الصعيد السياسي والديني .

.7التطرُّفُ الفكريُّ المتفجِّرُ في أذهانِ بعضِ شبابِ الساحة الإسلامية، الذي ساعدَ انتشارَهُ كُلُّ ما تقدَّمَ ذِكْرُهُ من الأزمات، وزاد الطين بللا الجهلُ العلمي بأصول التعامل الإسلامي مع هذه الأزمات، وزاد حِدَّة التطرف بعضُ الردودِ الحكوميةِ العنيفة عليه بغرض حفظ الأمن، و لم تُعطَ عناصرُ الساحة الثقافية والعلمية الإسلامية وقتا مناسبا لمعالجةِ ذلك التطرُّف بالحوارِ والاستيعاب، ومع أنَّ بعضَ المعاندين المتطرفين كانوا يُصِرّون على رفض الحوار، إلا أنَّ بعضهم الآخر كان يقبل الحوارَ، ويتحوَّلَ عن تطرُّفه.

ومما لا شك فيه أنَّ التصوُّفَ الأصيلَ بمضموناته الإحسانية التي تنبعُ من روحِ القرآن، وهدي المصطفى العدنان، يستطيعُ – لو أعطي فرصته- أن يستوعبَ كثيرا من تلك الأزمات، لكنَّ ابتعاده عن الدخولِ في الحركة الإصلاحية، وانكماشه عن دوره التربوي الأصيل، وإشراقاتِه المعرفيةِ المنَوِّرة، تركَ فراغا كبيرا، فبقيتِ النفوسُ المتكدرةُ برعوناتها الفوضويةِ تتخبطُ ضائعةً ومُضيِّعة، وانحرفتِ المقاصدُ في الحركاتِ المسلمة عن إرادة وجه الله، وكثُرتِ الشوائبُ المفسدةُ للإخلاص، وبضياعِ صدقِ التوجه إلى الله، وندرةِ إشراقِ الإخلاص، تحَوَّل العملُ الإسلاميّ إلى حركاتٍ حزبية لا تجعلُ الدعوة إلى الله أولويتها الكبرى، بمقدارِ ما تجعلُ من الرغبةِ العاجلةِ في تبوُّءِ مقاعدِ الحكم، وامتلاكِ مقاليدِ الأمور الظاهرة أولويتها، مع أنَّ الله تعالى قد ربط تغييرَ الأحوال في الأمة الإسلامية بتغيير البواطن: {إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ}[الرعد: 11]

ومما تقدم تظهرُ الحاجةُ ملحَّةً لإعادةِ النظرِ في أساليبِ العملِ الديني الإسلامي، وتبدو الظروفُ الجديدة مستوجِبةً مُراجعةً عامَّةً لكلِّ ما هو حاصلٌ في الساحة الإسلامية، ولا يُستثنى من ذلك ما عليه منتسبو التصوف الذين يُشكِّلُون من غير شكٍّ مِساحةً مهمّة في عالمنا الإسلامي المعاصر.

ثانيا -السلوكيات المعاصرة المنتسبة إلى التصوف بين الغث منها والسمين:

لكن ماذا عن واقعِ العملِ الصوفيّ المعاصر؟ إننا حين نمارس النقدَ الذاتي بشفافية وصدق نجد الساحة المتصوفة الحاضرة قد اختلط فيها ما هو أصيلٌ ونابعٌ من روحِ القرآن الكريم وأحوال المصطفى صلى الله عليه وسلم وتابعيه من السلف، مع ما هو دخيلٌ على تلك المحجة التي ليلها كنهارها، ويتجلى هذا الدخيلُ الشائبُ في أمور عدة أوجز بعضا منها:

.1شيوعُ الجهلِ بما لا ينبغي جهلُه من العلوم الشرعية؛ المدققة في العقيدة الإسلامية من جهة، والضابطة للسلوك في فقه الأحكامِ العملية من جهةٍ أخرى، وإن شئت فقل: شيوعُ التساهلِ بتلك الأحكامِ الشرعية إلى درجة أطلق فيها بعضُ المتميّعين عليها اسمَ القِشرِ الذي يستغني عنه طالبُ اللُباب، فهدّموا بذلك بنيانَ الدينِ، وشوَّهوا صورةَ بَدنهِ، بحُجة اهتمامهم بروحه وأحوالِه، جاهلين أو متجاهلين أنَّ الروحَ لا ظهور لها إلا في البدن، كما أنَّ البدنَ لا قيمة له من غير روح، قال الحارث المحاسبي رحمه الله "من صحح باطنه بالمراقبة والإخلاص، زيَّنَ ظاهره بالمجاهدة واتباعِ السُّنَّة" ، وقال الجنيد رحمه الله: عِلمنا هذا مشتبك بحديث ، وذكر أبو النجيب السهروردي أنَّ بعضهم قال: من أمّر السنة على نفسهρرسول الله قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمّر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة ، وقال أبو النجيب: "فكل من كان أفقه كانت نفسه أسرعَ إجابةً وأكثر انقيادا لمعالم الدين، وأوفرَ حظاً من نور اليقين ، وقال: "فكل حقيقة ردتها الشريعة فهي زندقة. "

أما الإمامُ الرفاعيُّ أحمد فقال: "لوّث هذه الخرقة كذاب قال: الباطن غير الظاهر، العارف يقول: الباطنُ باطن الظاهر، وجوهره الخالص" ، وقال الإمامُ الشاذُلي أبو الحسن: " كل علم تسبق إليك فيه الخواطر، وتميل إليه النفس، وتلذ به الطبيعة :، واقتد به وبالخلفاءρفارم به وإن كان حقاً، وخذ بعلم الله الذي أنزله على رسوله والصحابة والتابعين من بعده... تسلم من الشكوك، والظنون، والأوهام، والدعاوي الكاذبة المضلة عن الهدى وحقائقه "، وقال أيضا: " إذا عارض كشفك الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف وقل لنفسك: إن الله تعالى قد ضمن العصمة في الكتاب والسنة، ولم يضمنها لي في جانب الكشف ولا الإلهام، ولا المشاهدة."

ولكنَّ الراصِدَ لكثير من التجمعاتِ المتصوفة يفقد هذه الظاهرة، ليرى محلها ظاهرة أخرى وهي الاكتفاءُ بمجالس السماعِ المشحونة بالعواطف اللطيفة، ومعها التساهلُ أو الاستخفافُ بكثيرٍ من الأحكام الشرعية، وربما حرص بعضُهم على النوافلِ الكثيرة، وقصَّر أو أهملَ كثيرا من الواجباتِ التي أوجبها الله تعالى على عباده، ورحم الله صاحبَ الحكم العطائية إذ يقول: "مِنْ عَلامَةِ اتِّبَاعِ الهَوى المُسَارَعَةُ إِلَى نَوَافِلِ الخَيْرَاتِ، وَالتَّكَاسُلُ عَنِ القِيَامِ بِالْوَاجِبَاتِ.

وقد لاحظتُ شيوعَ هذه الظاهرةِ وانتشارها في البلاد الأوربية والأمريكية، باسم التصوف، وهكذا لم يقتصر الأمرُ على التجمعاتِ العمومية في كثير من البلدان الإسلامية، بل انتقلَ أو صُنعَ في بلادِ الغربِ، فأصبحتِ الحالُ بهذا الوصفِ قريبة من واقعِ المسيحية المتساهلةِ بالشرعيات، أو الفاقدةِ لقانونِ الفقهِ الضابط للسلوك، وهو غيرُ ما جاء به سيدنا عيسى عليه السلام، لأنه جاء مصَدِّقا بشريعة موسى صلواتُ الله عليه، ومُحِلًّا -كما بيَّن القرآن الكريمُ- بعض الذي حُرِّم عليهم، وتغيَّر بعدهُ واقعُ المسيحية، فكانَ اهتمامُ أتباعها بالعاطفة بديلا عن التكامل بين العاطفة والسلوك، وكانَ من نتائجِ غيابِ العلمِ الشرعي فيها والإفراطِ في العاطفة الانحرافُ العقَديُّ المعلوم، والانحرافُ عن التوحيدِ في تيّار التثليث.

وحين أتحدَّث عن الدخيلِ الشائب في كثير من الأوساط المتصوفة، فإنني لا أعمم على جميعها، فقد حافظَ بعضُها على أصالته، واهتمامه بالعلومِ الدينية، وظهر على أبنائها ورعًا واستقامة وصلاحًا، وفهما لقوله تعالى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [الزمر: 9]، وجمعا بين الشريعة والحقيقة المشار إليه بقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ}[النحل: 128[

ولا أذيعُ سِرّا حين أقولُ: إنَّ نهضتنا الصوفية في بلاد الشامِ قد جاءت من الجزائر الشقيق، فقد كانَ للشيخينِ الوافدين من الجزائر) سيدي محمد بن يلّس، وسيدي محمد الهاشمي التلمساني رحمهما الله) أكبرُ الأثر في إحداثِ هذه النهضة العلمية الصوفية الشامية، وساعَد على ذلك تواصلهما مع قاطِنَي مستغانم الجزائرية (سيدي البوزيدي، وسيدي أحمد بن مصطفى العلاوي رحمهما الله.(

واليوم نجتهدُ في بلادنا أن يكونَ في تجمعاتنا مع الاشتغالِ بذكر الله حِفظُ كتابِ الله وتلاوتُه، ودروسُ العقيدة والفقه والسيرةِ والحديث، تفاديا للخطر الواقعِ في بعض التجمعات، التي سمعنا عن بعضها أنها تعقِدُ مجالس الذكرِ في حلقةٍ تتشابكُ فيها أيدي الرجال بأيدي النساء، وتجاوز الأمرُ في بعضها إلى لمسِ الجسدِ الأنثوي بحجة قراءةِ الأورادِ عليه، وقصدِ الرُقية له، وهكذا جرَّ الجهلُ بالشريعة والتساهلُ بها إلى الانحرافات السلوكية التي يأباها الله تعالى ورسوله، ويلفظها التصوف الأصيل .

2.المبالغات الشائعة التي تصل إلى مستوى الخرافات، وحين تنتشر هذه المبالغات بعيدا عن الأجواء الواقعية والأساليب العلمية الحكيمة يقع الإنسانُ في الأوهام، ويصيرُ متخبطا في أسلوب التفكير، وقد قال

البديعُ النُورسي رحمه الله " :إذا وقع المجاز من يد العلم إلى يد الجهل ينقلب إلى حقيقة ويفتح الباب للخرافات.... إذ المجازات والتشبيهات إذا ما اقتطفتهما يسار الجهل المظلم من يمين العلم المنور أو استمرتا وطال عمرهما انقلبتا إلى حقيقة مستفرغة من الطراوة والنداوة فتصير سراباً خادعاً بعدما كانت شراباً زلالاً وتصبح عجوزاً شمطاء بعدما كانت فاتنة حسناء، ومما أطلعني على هذه الحقيقة ودلني عليها هو حدوث خسوف القمر زمن صباي إذ سألت والدتي عنه فأجابت: لقد ابتلع الثعبان القمر فقلت فلم يشاهد القمر قالت إن ثعابين السماء شبه شفافة" وقال أيضاً " إن دخول طائفة من الإسرائيليات وقسمٍ من الفلسفة اليونانية ضمن دائرة الإسلام وظهورَها بزي الدين الجميل شوشت الأفكار. "

وقد نشر بعض المشتغلين بالوعظ نصوصاً موضوعةً بنية حسنة على القاعدة الفاسدة التي تقول: (نكذبُ لرسول الله ولا نكذب عليه) ومن أقوال البديع النُورسي: "إن حبة من حقيقة تفضل بيدراً من الخيالات " "والمبالغة تشوش الأمور وتبلبلها لأن من سجايا البشر: مزج الخيال بالحقيقة بميل إلى الاستزادة في الكلام فيما التذ به والرغبة في إطلاق الكلام جزافاً فيما يصف والانجذاب إلى المبالغة فيما يُحكى" " والصديق الجاهل يمكنه أن يضر الدين بمثل ما يضر به العدو. "

وقد نبه الإمام الرفاعي رحمه الله في برهانه إلى مشكلة المبالغات بقوله: "أي سادة حدوا المراتب وإياكم والغلو أنزلوا الناس منازلهم، أشرف النوع الإنساني الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأشرف الأنبياء نبينا محمد وأشرف الخلق بعده آله وأصحابه وأشرف الخلق بعدهم التابعون... هذا على وجه الإجمال وأما على وجه الإفراد فالنص النص وإياكم والأخذ بالرأي فما هلك من هلك إلا بالرأي "

والمبالغات تحيط بالأشخاص، والتشخيصِ الواهم للأفعال، والانجذابِ المُفرط لخوارق العادات، ومن الجميل ما نقله صاحب حلية الأولياء عن أبي الحسين النوري الذي قال: "كان في نفسي من هذه الآيات شيء (أي رغبةٌ وتعلقٌ بخوارق العادات) فأخذتُ من الصبيان قصبةً وقمتُ بين زورقين، وقلتُ: وعِزَّتك لئن لم تُخرجْ لي سمكةً فيها ثلاثة أرطال لأُغرِقنَّ نفسي، قال :فخرجتْ لي سمكةٌ فيها ثلاثة أرطال، فبلغ ذلك الجنيد فقال: كان حكمُه أن تخرجَ له أفعى فتلدغه" ، فكان إنكارُ الجنيد في تلك القصة على النوريِّ دالاّ على وُجوبِ الترفع عن طلب خوارق العادة، لأن هِمَّةَ الصوفيِّ الصادق لا تتعلق إلا بالله.

ويقول الإمامُ الرفاعيُّ رحمة الله عليه: "لا تجعل غاية همتك ومنتهى قصدك أن تمر على الماء، أو تطير في الهواء، يصنع الطيرُ والحوتُ ما أردت، طِرْ بجناح همتك إلى ما لا غاية له، العارفُ المتمكن لا شيء عنده من العرش إلى الثرى أعظمُ من سروره بربه. "

وما ذكر يُظهرُ التزام القوم بالمنهج الواضح وواقعيتهم في إطار قوانين حكمة الله تعالى السببية، التي ينافيها حرصُ الإنسان على المبالغة وخرق العادة .

3. الممارساتُ الدخيلة، التي لا نجدُ لها في أصول التصوف وجودا، فبعضُهم يطعنُ بدنه بالحديد، وبعضهم يأكُلُ في جوفه النارَ أو الزجاج، وبعضُهم يشغَلُ نفسه بصحبة الأفاعي والعقارب، وحين تتحوَّلُ هذه الممارساتُ إلى مقاصد، تنحرفُ إرادة الإنسان عن طريقها الذي رسمه الله تعالى لها، فمقصودُ العارفِ وجهُ مولاه، وكُلّ صارفٍ عن هذا المقصودِ قاطعٌ وحاجب، قال الجنيدُ رحمه الله: "أكثر العوائق والحوائل والموانع من فساد الابتداء فالمريد في أول سلوك هذا الطريق يحتاج إلى إحكام النية، وإحكامُ النية: تنـــزيهها من دواعي الهوى، وكل ما كان للنفس فيه حظ عاجل، حتى يكون خروجه خالصاً لله تعالى" ، وقال صاحب الحكم العطائية: "مَطْلَبُ الْعَارِفِينَ مِنَ اللّهِ الصِّدْقُ فِي الْعُبُودِيَّةِ والْقِيَامُ بِحُقُوقِ الرُّبوبِيَّةِ. "

وقد بالغَ بعضهم في شكليّاتٍ كادت أن تصل إلى رتبة المقَدّس بسبب تراكمية العُرف والعادة، وقد أحسن ابن البنا السرَقُسْطي في مباحثه الأصلية حين وصف بعضها فقال:

فاعلـــمْ بأنَّ أهلَ هذا العـــصرِ قد شُـــغِلوا بمحـدَثاتِ الأمـــرِ
إذ أحدثـــوا بينهـمُ اصـطلاحـا لم أرَ للديـــنِ به صــــلاحـا
و صنَّفـوا بينهُـــمُ أحـــــكاما إذ نَقضُوا الأصولَ و الأركــــانا
و في السماعِ كان غَـلْـقُ البـــابِ و الآن عِنـــدَ جــُفُـنٍ جَـوابي
فكلُّ ما اليومَ علـيهِ النــــاسُ من مدعينَ الفــــقرَ فــــيهِ باسُ
أكـثَـرهـا كانتْ لهـم حَـرامـا و صـــيَّـروهُ في الـورى مُهـانا
و افْـتُـضـحوا و اصطَلَحوا لديها فصارَ ما كـــانَ لهـا عليـــها
حقٌّ لمن كان عليـهـمْ مُـنـــكِرا إذ كُلُّ ما يُبصـرُ منهـمْ منـكَرا

وهو بهذا النقد الذاتي يريدُ إعادة التصوِّفِ إلى روحه الأصيلة، وصورته المشرقة.

وقال القرطبي صاحب التفسير: "دخل أبو محمد الكرخي ابن أخي معروف على أبي الحسنِ بن يسار وعليه جبةُ صوف، فقال له: صوّفت قلبك أو جسمك؟ صوف قلبك، والبس القوهي على القوهي"، وقال رجل للشبلي: قد ورد جماعة من أصحابك وهم في الجامع، فمضى فرأى عليهم المرقعات والفوط، فأنشأ يقول:

أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحي غير نسائه

وقال الإمام الرفاعي:

"تَظن أن هذه الطريقةَ تورَّثُ من أبيك؟ تسلسل من جدك؟ تأتيك باسم بكر وعمرو؟ تُصَرُّ لك في وثيقة نسبك؟ تُنقش لك على جيب خرقتك؟ على طرف تاجك؟ حسبت هذه البضاعة ثوب شعر، وتاجًا وعكازًا... وعمامة كبيرة وزيًا صالحًا، لا والله، إن الله لا ينظر إلى كل هذا..... ما عملت بأعمال الطائفة وتلبس لباسهم يا مسكين. "

وكلُّ ما ذُكرَ يُظهرُ حرصَ متقدِّمي القوم على توجيه القلوب إلى الحقِّ تعالى، والانتقال عن الشكلياتِ الفارغة من المضمونات إلى مقام الإحسانِ الذوقي الذي يُعبَدُ الله فيه كأنه يُرى.

4.فُقدانُ الإحساسِ بقيمةِ العملِ المنتج، الذي هو جزء رئيسٌ من تكليف الله تعالى للإنسان، وبعضٌ من معاني استخلافه في الأرض، وهو سبحانه القائل: {هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا}[هود: 61] وبدلا من ذلك فشا الاكتفاءُ بالعبادة الفردية، والأورادِ الروحية، وهي ظاهرة تتنافى مع ما كانَ عليه متقدمو الصوفية.

قال سهل بن عبد الله: التوكل ، والكسب سنته، فمن بقي على حاله فلا يتركنّ سنته" ، وقال يعقوب بنρحال النبي المغيرة: كنا مع إبراهيم ابن أدهم في الحصاد في شهر رمضان، فقيل له: يا أبا إسحاق لو دخلت بنا إلى المدينة فنصوم العشر الأواخر بالمدينة لعلنا ندرك ليلة القدر، فقال: أقيموا ههنا، وأجيدوا العمل، ولكم بكل ليلةٍ ليلةُ القدر.

وقد كان أبو الحسن الشاذُلي عاملاً في الزراعة، وصاحب حقول، وزرع، واعتنى عناية شديدة بأمر

المسلمين في حروبهم، حتى لقد كان دائماً في ميدان الحرب مع الجيش والجند، كما أنه اعتنى عناية شديدة بقضاء مصالح المسلمين الضعفاء والمساكين، وسعى جاهداً في أن ييسر لهم – بتوفيق الله – ما تعسر، ويحل لهم ما تعقد، ويفرج من كرباتهم مهما لاقى في سبيل ذلك من عنت حاكم، أو عدم مبالاة صاحب جاه.

وكل ما تقدم يُظهر قيمة العمل المنتج عند علماء التصوف ورواده الكرام.

ثالثا - مقاصد التصوف الكبرى في تربيته ومعارفه:

) التصوف) أو (الإحسان) هو حال المقربين من عباد الله تعالى، فما من نبي علَّمَه الله تعالى أو رسولٍ أرسله، إلا والتصوف حالٌ له، لأنه تحقيق العبودية المقرون بأحوالِ الحضور في تعظيم المعبود.

التَصوفَ أوρوقد تلقّى أصحابُ النبي وكان ذلك عامّاً في الصحابة والتابعين والسلف الصالحρالإحسان) سلوكًا وحالا عنه كما يقرر ابن خلدون في مقدمته، ولما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختُصَّ المقبلون على العبادة باسم الصوفية.اهـ

وقد أثار بعض المستشرقين الغربيين مثل نيكلسون قضية اتبعها بعضُ اللاهثين وراء ما ينتجه الغرب، وهي أنَّ التصوف مذهب جديد أوشك أصحابُه أن يتحللوا من الأوامر الدينية، وأنه نِحلةٌ طغت عليها الاتجاهات الفلسفية البعيدة عن الإسلام ، لكنَّ الاستقراء يُثبتُ غير ذلك فأعيانُ القوم في القرون السابقة واللاحقة كانوا على أعظم درجات التمسك بالشريعة الإسلامية، فقد قال الإمام الفقيه المجتهد أحمد بن حنبل يوم بلغه موت (بشر الحافي) : " لم يكن له نظير" ، وقال (ذو النون المصري) "من علامات المحبِّ لله عزَّ وجلَّ متابعةُ حبيبِ الله صلى الله عليه وسلم في أخلاقه، وأفعاله، وأوامره، وسننه" ، وقال (أبو يزيد البسطامي) "لو نظرتم إلى رجل أُعطي من الكرامات حتى يُرفَع في الهواء، فلا تغتروا به، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود، وأداء الشريعة" ، وقال (سهل بن عبد الله التُستَري) : "أصولنا ستة أشياء" وعد من أولها "التمسك بكتاب الله تعالى والاقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم" ، وقال (الإمام الجنيد البغدادي) : "الطرق كلها مسدودة على الخلق، إلا من اقتفى أثر الرسول، واتبع سنَّتَه، ولزم طريقته، فإن طريق الخيرات كلها مفتوحة عليه. "

وكانت الباحثة الألمانية المعاصرة الراحلة (آنّيماري شيمِل) تقول: "محمد (هو الحلقة الأولى في السلسلة الروحية للتصوف" وقالت: "أدرك تولوك أن العقيدة ( )ρوينبغي أن توضَّحَ من خلالهρ. "الصوفية ولدت من تصوف محمد)

وترجع وسائل التصوف إلى تصحيح الإرادة، قال تعالى: {فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ}[الروم: 38[

أما غايته فتنحصر في قضيتين: معرفةِ الله، وتزكية النفس.

وفي مقدماته ووسائله نرى تركيز القوم على التوبةِ من الذنوب، والتدريب على موافقةِ أمر الله، بالانضباط بضوابط الفقه الإسلامي، وهو أمرٌ يكون شديدًا على المبتدئين، ولطيفًا على نفوس الراسخين، حتى لقد قال يحيى بن معاذ حين رأى رجلاً يقلع أحجار الجبل في يوم حارٍّ، وهو يغنّي: "مسكينٌ ابنُ آدم، قلعُ الأحجارِ أهونُ عليه من تركِ الأوزار" ، والقومُ في أسلوب التربية والارتقاء الروحي يذهبون مذهبين:

-المذهب الأول إشراقي يعتمدُ المجاهدات منطلقا إلى تزكية النفسِ، وتمهيدا لمعرفة الروح.

-والمذهبُ الثاني تعريفيٌّ يعتمدُ العلمَ التصديقيَّ منطلقا إلى المعرفةِ الذوقية الشهودية، ومن منـــزلِ الشهود تفيضُ على النفسِ اللطائفُ فتتزكى من طريق (ستر الوصفِ بالوصف .(

أشار إلى مقدماتِ المذهب الأول سهلُ بن عبد الله التستَري بقوله: "لما خلق الله تعالى الدّنيا جعل في الشبع المعصية والجهل، وجعل في الجوع العلم والحكمة" ، وهم في هذا المذهب الأول يعتنون بمقاماتِ الزهد، والتوكل، والصدق، إلى غير ذلك من منازل ارتقاء النفس.

أما أصحابُ المذهب التعريفيّ الثاني، فإنهم يعيبون على السالك وقوفه مع المنازل والمقامات، فالزهد عندهم هو زهدٌ فيما لا وجود له ولا اعتبار له عنده، وفي هذا المعنى قال أبو يزيد: "ليس للزهد منـــزلة، لأني كنت ثلاثة أيام في الزهد، فلما كان اليومُ الرابع خرجت منه: اليوم الأول: زهدت في الدنيا وما فيها، واليوم الثاني :زهدت في الآخرة وما فيها، واليوم الثالث: زهدت فيما سوى الله، فلما كان اليوم الرابع لم يبق لي سوى الله. "

ويرى أصحابُ هذا المذهب التعريفي عدم ضرورةِ البعدِ عن الطبع، ولذا قرر ابن عجيبة رحمه الله أنَّ "مَنْ

سار إلى الله بمخالفة طبعه كان الوصولُ إليه بقَدْرِ بُعْدِهِ عن طبعه. "

فالمذهبُ التعريفي يعتني بتوجيه الأرواح إلى الحقِّ وتغييبها عن سواه، ولا يلتفتُ أصلا إلى النفسِ لأن حصولَ تزكيتها لديهم هو تحصيلُ حاصل، وقد عبَّر الإمامُ الجنيد عن هذا المشرب بقوله المعبِّر عن المعرفة: "ارتفاعُ الرَيْب في مشهد الغيب " ، وقال أيضا: مجيبا عن معنى المحبة: "دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب" ، وحين سئل رويم بن أحمد بن يزيد البغدادي رحمه الله عن التوحيد قال هو: "محوُ آثار البشرية، وتجردُ الألوهية " ، وفي هذا المعنى قال بعضهم: "ليس في التوحيد خلق، وما وحد الله غيرُ الله. "

وقد تكون الغيبة عن سوى الله تعالى مندرجة في الاستغراق في مراقبته، وإليها الإشارة بقوله تعالى: {قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ}[الشعراء: 62]، وقوله: { أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى] {العلق: 14.[

وقد تكون تلك الغيبة عن السوى في معنى الشهود، المعبر عنه بقوله تعالى {وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا} [المزمل: 8-9] أي انقطع إليه بالكلية حتى تغيب به عن سواه، والاسم عند المحققين عين المسمى .

حكي أنا حاتماً الأصمَّ قال: كنا مع شقيق في مصاف نحارب الترك في يوم لا نرى فيه إلا رؤوساً تُنْدَر، ورماحاً تنقصف، وسيوفاً تنقطع، فقال لي شقيق: كيف ترى نفسك يا حاتم في هذا اليوم؟ تراه مثل ما كنت في الليلة التي زفّت إليك امرأتك؟ فقال: لا والله، قال: لكنّي والله أرى نفسي في هذا اليوم مثلَ ما كنتُ تلك الليلة.

ثم نام بين الصفَّين ودرقته تحت رأسه حتى سمعت غطيطه.

ولا يكون مثل هذا الحال وقلبُ الإنسان مشغولٌ بالخلق بل إنه لا يكون إلا حين يغيب عن الخلق بالحق.

ونحنُ في مشربنا الشاذُلي ننتمي إلى هذا المذهبِ التعريفي، ونسلك مسالكه، وهو يعتمدُ نفيَ وجودِ شيءٍ مع الحق، فهو الواحد الذي لا شريك له، وإيجاده تعالى للمخلوقات لا يعني وجودها معه، لأنها في حكم المستمدِّ المعتمدِ في كلِّ لحظة على قدرته، ولو قطع عنها إمداده لحظة لم يعد لها أي اعتبار، فوجود الأشياء مع الحق لا يكون إلاَّ إذا كان الحقُّ تعالى قابلا للحلولِ في الأشياء أو الاتحادِ بها، وحاشاه حاشاه من

ذلك، وقد تبرأ جميعُ علماء الصوفية من الحلول والاتحاد ، وقال الجنيد، رحمه الله: " التوحيد إفراد القِدَمِ من الحَدَثِ " ، ويوضح ابن عطاء الله السكندري هذه المسألة بقوله " :الأَكْوَانُ ثَابِتَةٌ بِإِثْبَاتِهِ، مَمْحُوَّةٌ بِأَحَدِيّةِ ذَاتِهِ. "

رابعا- التطوير المنشود في أسلوب العمل الصوفي:

كانَ للطُرقِ الصوفية في الماضي دور كبيرٌ في إصلاح المجتمعات الإسلامية وإعادتها إلى الرشاد، وقد ألمح بديعُ الزمان النُورسي إلى فضل أهل الطريقة في أوقاتِ المحن فقال: "ولا أدلَّ على ذلك من احتفاظ أهل الطريقة بإيمانهم أثناء هجوم أهل الضلالة، حتى إن منتسبًا اعتياديًا مخلصًا من أهل الطريقة يحافظ على نفسه أكثر من أي مدعٍ كان للعلم، إذ ينقذ إيمانه بما حصل عليه من الذوق الروحي في الطريقة وبما يحمله من حب تجاه الأولياء. "

وكان يفسر ثباتهم: بالقوة الإيمانية، والمحبة الروحانية والأشواق المتفجرة من المعرفة الإلهية وهم يرددون «الله...الله» في الزوايا والتكايا المتممة لرسالة الجوامع والمساجد والرافدة لهما بجداول الإيمان ، وكان يقول: "يجب أن لا ننسى فضل أهل الطرق في المحافظة على مركز الخلافة الإسلامية «استانبول» طوال خمسمائة وخمسين سنة. "

وإذا أردنا أن يبقى للطرق دورها التربويُّ والإصلاحي فلا بُدَّ من التطوير في عملها المعاصر، ولعلي في هذا الموطن أشير إلى بعض الأمور المهمة المتعلقة بهذا الموضوع:

1. ينبغي علينا التمييز بين واجبِ خصوصية التربية الذوقية العرفانية التي تقتضي العناية بأحوال الأفراد من أصحاب الاستعداد النقي عناية طويلة متأنية، وواجبِ الدعوة الإسلامية المنفتحة على كل الناس، حتّى نعطيَ في بيئة كُلِّ واجبٍ من الواجبين حقَّه، فالتربية الذوقية بيئةٌ خاصة تحمل كُلَّ عوامل الخصوصية، والدعوةُ بيئةٌ عامَّةٌ توجبُ الانفتاحَ العلمي والعملي على جميعِ أطياف الأمة أولا، وعلى جميع سكان العالم ثانيا؟

ومن هنا فينبغي أن تكون بيئةُ التربية العِرفانية مغلقةً على أصحاب الاستعداد الخاص، كما تُغلقُ البحوثُ

العلمية على بعضρأصحابها اليوم في كلِّ الدول المتطورة، لما فيها من الخصوصية، وقد خصَّ النبي أصحابه بشيء لم ينله غيره كحذيفة، وأبي هريرة، وهكذا يكونُ الاصطلاحُ الإشاري التخصصي في محله، أما حينَ يكثُر التداولُ لعباراتٍ يعجزُ غيرُ أهلها عن فهمها، فالمآل أن يُساء الظنُّ بأولياء الله، ويُصرَفُ معناها التوحيديُّ الأصيلُ إلى انحرافاتٍ عقدية كالحلول والاتحاد اللذَين جلَّ المولى سبحانه عنهما، وتنـــزَّه أولياء الله تعالى عن القول بهما.

وكان عَلِيٌّ رضي الله عنه يقول: "حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ "

وكان الشافعي ينشد في شعره:

أَأَنْثُرُ دُرًّا بَيْنَ سَارِحَةِ النَّعَمْ أَأَنْظِمُ مَنْثُورًا لِرَاعِيَةِ الْغَنَمْ

لَعَمْرِي لَإِنْ ضُيِّعْتُ فِي شَرِّ بَلْدَةٍ فَلَسْت مُضَيِّعًا بَيْنَهُمْ غُرَرَ الْكَلِمْ

فَإِنْ فَرَّجَ اللَّهُ اللَّطِيفُ بِلُطْفِهِ وَصَادَفْت أَهْلًا لِلْعُلُومِ وَلِلْحِكَمْ

بَثَثْتُ مُفِيدًا وَاسْتَفَدْتُ وِدَادَهُمْ وَإِلَّا فَمَخْزُونٌ لَدَيَّ وَمُكْتَتَمْ

وَمَنْ مَنَحَ الْجُهَّالَ عِلْمًا أَضَاعَهُ وَمَنْ مَنَعَ الْمُسْتَوْجِبِينَ فَقَدْ ظَلَمْ

وقد وصف أستاذي عبد الرحمن الشاغوري شيخه الهاشمي التلمساني في مرثيته له فقال:

ولكم وددتُ بأن يفوه بلفظةٍ تنبي بسرٍّ حقيقة من عالم

لكنه بالشرع قام وإنه للسرِّ والأشواقِ أفضلُ كاتم

وتعبير العارفينَ عن الحقائق إذا كان خارجا عن ذوقٍ صادقٍ لن يصطدمَ بإنكار أهل العلم وإن لم يبلغ مداركهم، ويشهدُ لهذه الفكرة ما وقع لأبي العباس بن سريج الذي كان فقيهَ وقته عِلمًا ولغةً وفهمًا، حين مرَّ بمجلس الجنيد وسمع كلامه، و لم يقدر على فهمه مع سَعة علمه، ولما سألوه: "ما تقول في هذا الكلام؟ قال :لا أدري ما يقول، ولكني أرى لهذا الكلام صولة ليست بصولة مبطل. "

أما الكلام على حقائق التوحيد العرفاني من غير تحقق بها فإنه يثير ما يثيره من النـــزاع والإنكار، قال أبو يزيد البسطامي: "من تكلم في الأزل يحتاج أن يكون معه سراج الأزل "، أي من أراد أن يتكلم في الحقائق الإلهية الأزلية، فهو بحاجة إلى إشراق أنوار تلك الحقائق على روحه قبل أن يتكلم بها.

أما بيئةُ الدعوة الإسلامية فينبغي أن تكون منفتحة على جميع الناس، ومستخدمة كلَّ وسائل النشر، فيكون بهذا انتقال الأذواق من الصدور، ويكون نشرُ العلوم كلها في السطور.

2.من آمالنا الارتقاء الشعوري بأنَّ كُل تجمعٍ صوفي منضبطٍ بضوابط الكتاب والسنة هو صفٌّ من الصفوف في مدرسة كبيرة مساحتها الأرض التي جعلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم مسجدا وطهورا، وأن مُديرَ هذه المدرسة وآمرَها العام هو سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم وأنَّ الشخص الاعتباري للشيخ الصوفي هو الأستاذ المنفِّذُ بدقة ما يمليه عليه الآمر العام؟ وبهذا نخرجُ من أزمة الوهم بتعدد المدارس، وتنوع الابتكارات، وقد كانَ أبو : فهوρالحسن الشاذُلي يقول: " من دعا إلى الله تعالى بغير ما دعا به رسول الله، بدعي " ، وكان سيدي أحمد الرفاعي يقول: "الشيخ من يلزمك الكتاب والسنة، ويبعدك عن المحدثة والبدعة "

3.مما نرجوه ونتمناه أن يتمسك نُخَبُ التصوف بما هو من قبيل روح التصوف، الذي هو عين الركن الإحساني من الدين، وأن يتنازلوا عن بعض التقاليد الفرعية الهامشية الموروثة إذا ثبت أنها تسبب أزمة إسلامية داخلية، لأنَّ الحاجة صارت ملحَّةً لإعادةِ لَمِّ الصفِّ المبعثر هنا وهناك، والعنايةِ بالقواسم الإسلامية الكبرى المشتركة من جديد، ليتحقق للأمة مرةً ثانية الاعتصامُ بحبلِ الله الذي هو محورُ وحدتها في كل وقت وحين، وذلك قبلَ القفزِ المتحمِّس إلى حوارِ المسلمين العالميّ معَ المنتمين إلى الأديانِ الأخرى خارجَ دائرة الإسلام، فالاهتمام بالتقاربِ الثقافيّ في ساحة الأمة الإسلامية أوجبُ وأقرب، لأنّ المرحلة خطيرة، ولأنَّ الخطبَ جسيم.

4.لنا أن نقول في هذا الوقت إنَّ التركيز على شخصِ الشيخِ ودوره قد تجاوز ما كان سائدا عند متقدّمي القوم، فقد أصبحَت قضية (الشيخ المرشد (متجاوزة حدَّ المعقول والمنقول، وبالغَ بعضهم إلى درجة جعل المقولة الشائعة: (من لا شيخ له فشيخه الشيطان) كأنها في رتبة محكم القرآن، لكننا بالبحث في كتب القوم نجد الإمام الغزالي متسائلا عن وصول الإنسان إلى قُرب مولاه ومعرفته: ".. هل يحصل بنظر الإنسان من غير معلم؟ ويجيب على السؤال قائلا: "فاعلم أن الأستاذ فاتحٌ ومُسهِّل، والتحصيلُ معه أسهل وأروح، والله تعالى بفضله يمتن على من يشاء من عباده فيكون هو معلمهم " ، وبهذا يذهب أبو

حامد إلى إمكانِ وجود الصوفي الكامل بغير شيخ، ويتابع الإمامُ الغزالي البحث فيقول: " اعلم أن العلوم التي ليست ضرورية، وإنما تحصل في القلب في بعض الأحوال تختلف الحال في حصولها، فتارة تهجم على القلب كأنه ألقي فيه من حيث لا يدري، وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم، فالذي يحصل لا بطريق الاكتساب وحيلة الدليل يسمى إلهاماً، والذي يحصل بالاستدلال يسمى اعتباراً واستبصارًا" ، وهو بهذا يؤكد ذلك الإمكان الذي أشرنا إليه، أما العلامة الشيخ أحمد زروق فيقرر في قواعده: أنَّ " أخذ العلم والعمل عن المشايخ أتم من أخذه دونهم "فيجعلُ الشيخ شرط كمال، لا شرط وصول، وإنَّ هذه القضية تفتحُ الباب لمن أرادَ التزام التقوى، والسيرَ على منهجِ مجاهدة النفسِ لصرفها عن الانحراف، وسوقها إلى الله تعالى سَوقا باتباع الحبيب المصطفى، وتُغلقُ أبواب الحيرة في اختيار الشيخِ الذي لا بُدَّ منه على القول الشائع، والتنافسِ على الألقاب، بعيدا عن الصدقِ في التوجه إلى الله.

وقد وضح الأمير عبد القادر الجزائري رحمه الله هذا الموضوع بقوله: " تنفع أكملية الشيخ من حيث الدلالة الموصلة إلى المقصود، وإلا فالشيخُ لا يعطي المريد إلا ما أعطاه له استعداده، واستعداده منطوٍ فيه وفي أعماله "

وبهذا يوجه الأميرُ رحمه الله إلى أصل الاستعداد في السالك، وما يتبعه من الأعمال النقية، والأخلاق السنية.

.5ينبغي إغلاق أبواب الشطح مهما كانَ صاحبها كبيرَ الحال، لأنَّ الشطح لا يصدرُ إلا عن رجلين: منحرفٍ عن الشريعة جاهل بها، أو صاحبِ سُكرٍ وغيبةٍ عن الحسِّ في الأحوال الروحية، وكلاهما لا يصلحُ النقل عنه ولا اتباعه، وقد قالوا لسهل بن عبد الله رحمه الله: ما تقول في رجل يقول: أنا مثل الباب لا أتحرك إلا أن يحركوني؟ فقال سهل بن عبد الله: "هذا لا يقوله إلا أحدُ رجلين: إما صِدّيقٌ، أو رجل زِنديق" .، وكان الصوفية يأمرون التلاميذ بالتسليم لأصحاب تلك الحال، وينهونهم عن اتباعهم.

وقد قال العلامة أحمد زروق في قواعده: " فغلاة المتصوفة كأهل الأهواء من الأصوليين وكالمطعون عليهم من المتفقهين يرد قولهم ويجتنب فعلهم ولا يترك المذهب الحق الثابت لنسبتهم له وظهورهم فيه " اهـــ.

.6نرجو للمنهج الصوفي المعاصر أن يلتزم الدعوة إلى مبدأ (الخلوة في الجلوة) الذي أشار إليه الجريري

حين سئل عن الخلوة فقال: " أن تدخل الزحام وأن لا يزاحموك في سرك" وقد قال بعضهم:

لئن كان قومٌ بالزوايا تقيدوا فإنا نرى كل الوجود زواياكم

ومن هذه الرؤية يتحرك الصوفي في الكون وهو يراه زاويةً صوفيةً؛كلٌّ مَنْ فيها ذاكرٌ للحقِّ، ومسبِّحٌ بحمده، تدورُ أفلاكهُ في حلقةِ الذكرِ هائمةً، وتتألقُ كواكبهُ وشموسهُ ونجومهُ بأنوار الهباتِ والعطايا الربانية والمواهبِ الصمدانية، وهي تقولُ لإمامها الإنسان، نحنُ مِن ورائك في حلقة الذكر هذه نسير، وخلفك في منازل المحبة نهيم.

والذي لا يتنبه من البشرِ إلى منـــزلته ومكانتهِ تلك سيتراجعُ عن مكانه في حلقة الذكر الكونية، ويبحثُ عن موقعٍ له بينَ البهائمِ الآكلة الراتعة، أو كهفٍ له بين الضباعِ والسباع.

الخلاصة:

يتبين من البحث المتقدم أن الظرف المعاصر بأزماته المتعددة، وشتاتِ الأمة المنظور فيه، يطلب من علماء الصوفية جهدا جادًّا، لاستيعاب الظرف، وإنني أدعو مرارا وتكرارا إلى تنظيم ورشة عمل مغلقة لا يشترك فيها إلا النخبُ العلمية المستوعبة للمتغيرات، ولعلنا بذلك نساهم في الإصلاح الذي ينتظره عالمنا اليوم، ونشارك في النهضة التي تنتظرها أمتنا بفارغ الصبر.